

المحتويات

3	إهداء
5	المحتويات
7	تقديم
13	القسم الأول
	كتب التراجم: المفهوم والمنهج
15	التراجم والتراجمة: عرض للمفهوم وتقريب للمعنى
	حسن بوكبير
21	الكتابة التاريخية وكتب التراجم والأعلام: دواعي النظر ومبررات الفكر
	محمد البركة
47	مقاربة المعنى في الخطاب التاريخي: كتب التراجم نموذجا
	محمد بنحمادة
77	المناهج الإعلامية والبروسوبوغرافية وتطبيقاتها على التاريخ الاجتماعي للأندلس
	تأليف: محمد مواق - ترجمة: عبد اللطيف الخمار
91	الفكر النباتي والصيدلي بالغرب الإسلامي من خلال كتب التراجم
	سعيد بنحمادة
111	القسم الثاني
	كتب التراجم: القضايا والأعلام
113	تاريخ ويلي السياسي والاجتماعي من خلال نقيشة الزعيم المحلي ماركوس فاليريوس
	عبد اللطيف الغرفي
139	النبوغ التازي: دراسة بيوغرافية لبعض أعلام قبيلة جزناية
	عثمان سال وطارق زوكاغ

- 151 مضمّرات كتب التراجم: قراءة في المخفي من كتاب دوحة الناشر لابن عسكر الشفشاوني
نورالدين احجيرة
- 159 من مصادر التاريخ وأدب التراجم كتب الرحلات: رحلة ابن حمادوش الجزائري نموذجاً
أحمد إيشرخان
- 169 محمد بن عبد الكريم الخطابي نشأته وحياته الفكرية
عبد الله الكاموني
- 189 آل الطريس في حياة السلطنة المغربية

تقديم

لماذا إعادة قراءة أدب التراجم؟ أو بالأحرى لماذا إعادة التعريف بأدب التراجم؟ هل استجد جديد في ذلك يدعو إلى الكتابة في الموضوع؟ أم هي الرغبة في إعادة تكرار معالجة القضايا، والبحث عن مقاصد تتجاوز الصياغة إلى تقريب المعلومة في علاقتها بعلوم ومناهج حديثة؟

يبدو أن الإجابة عن هذه الأسئلة أو بعضها يكمن عموماً في تجديد الصلة بالمعاني والقناعات، وكسر جدار المؤلف والمعتاد، على أن المبرر الخاص والمحفز للكتابة في مثل هذا الموضوع، يكمن في أن المعرفة الصلبة للزوم التوظيف والانفتاح على هذا الجنس من المصادر بين رواد المدرسة المغربية لن يقلل منه أحد، لكن اتضح من خلال العمل الميداني والبيداغوجي، أن القصور في معرفة عناصر القوة في مثل هذا الجنس المصدري وغيره جلي وواضح، وأن المعرفة المثلى له تقتصر في أحسن الأحوال على الانفتاح على نماذج منها بغاية تعزيز معلومة أو الترجمة لعلم من الأعلام، وفي ذلك -برأينا- تبخيس لهذا الجنس المصدري، الذي عزز في مراحل لاحقة ببعض الحالات المدققة التي تبحث في موضوع الشرف والنسب داخل البيوتات، حيث ((يؤكد الشرف استمرارية الانتماء في مستوى السلالة، وخارج دائرة النسب الشريف تنطلق مسيرة الحسب من الولاية و/أو من العلم))¹، كما تبحث في كل ما يتصل بذلك من حديث عن أنواع البيوتات رغم اختلافها، وحديث عن الانتماء المهني والاجتماعي داخل البيوتات نفسها على تنوعه، أي إن بنية النص الخاص بالتراجم تظل دائماً تحيل على النموذج المستوعب للموضوع، وفي ذلك تضيق للمعنى وحصر لدلالات المبني.

وبما أن المؤرخ غير المحترف غالباً ما يعتمد إلى مطابقة المعنى الوارد في المصادر بالواقع التاريخي الذي يدرسه بشكل آلي، أي وكأن في ما أشارت إليه المصادر من معاني هو الواقع بعينه، كان من الواجب بيان هذا الربط التبسيطي الذي غالباً ما يحجب عن الباحث الوصول إلى الحقيقة التاريخية، ويجعله بعيداً عنها، بل يجعله حبيس سياج متعدد الألفاظ والخلفيات والتحيزات والولاءات، لذلك كان لزاماً على المؤرخ مقارنة الخطاب التاريخي الوارد في المصادر بتنوعها على أساس فكرة الاتصال والانفصال؛ فإذا كان الاتصال بين الخطاب والواقع هو الدافع إلى الكتابة عن الحدث التاريخي، فإن التعبير عن هذا الواقع بمعاني محددة، والكتابة عنه استناداً على خطاب محدد له

¹ - عبد الأحد السبتي، التاريخ والذاكرة، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط 1، 2012م: 77.

دوافعه وخلفياته، هي من تؤسس لفكرة الانفصال بين الخطاب والواقع التاريخي، بل هو الذي يكون أساس تعميق الانفصال عندما يكون حمالا لفهوم أخرى تزيد من الابتعاد عن الواقع التاريخي وتقرب إلى المتخيل التاريخي.

كما كان لزاما على المؤرخ مقارنة الخطاب التاريخي المعبر عنه في المصادر على أساس فكرة الإدراك والصياغة؛ فإذا كان الإدراك لا يستطيع أن يستوعب جزئيات الحدث الواحد نظرا لتشتتها واختلاف دوافعها ومعاني التعبير عنها عبر فترات قبلية وبعدية للحدث، فإن اللغة المستعملة للتعبير عن الواقع التاريخي لا يمكنها أن تعكس الواقع أو أن تستنسخه، لأن الشرط النفسي يظل حاضرا في الصياغة، وهذا ما يدعو إلى لزوم فهم طريقة بناء المعنى في النص التاريخي، ومقارنته بنصوص أخرى تنتسب لأجناس مصدرية مجاورة للمدونات الإخبارية، مقارنة تقلص من حجم التأويل الممكن إسقاطه على النص التاريخي، لأنه نص لا يحيل على الواقعة التاريخية إحالة واضحة، نظرا لأن طبيعة تداخل العناصر الناقلة له تصيره نصا مؤولا.

وكتب التراجم جنس من هذه الفنون، وصنف من الكتابات التي ضمن المؤرخ آثارها إلى قائمة مصادره، نظرا لما توفره وتقدمه من معلومات ومعطيات اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية، يعول عليها في تحرير قضايا متعددة تخالف أو تطابق ما ورد في المدونات، لكنها تظل مستجيبة لدوافع أخرى غير تلك التي أسهمت في صياغة المصادر التاريخية، وهنا برأينا مكن القوة والجدة.

ولما كان النص التاريخي لا يملك إلا جزءا من الواقعة المتحدث عنها، لأنه يستحيل الإحاطة بكل تفاصيل الواقعة، كان من الحافز للباحث التنقيب عن باقي الأجزاء الأخرى في غير المصدر التاريخي، على أن اللغة -في المصادر أولا وعند الباحث ثانيا رغم تحريه في الكلمات- تظل عاجزة عن استيعاب الواقعة، لكنها قادرة على تجلية بعض مضمراتها، ف((منع المؤرخ هو وجهة فكر المؤرخ إذ يؤرخ))²، ولغة المؤرخ هي تعبير عن معجم المؤرخ إذ يؤرخ، وهي تصريح بذهنية المؤرخ إذ يؤرخ، فالأفكار لا يمكن إدراكها خارج مفاهيمها، والمفاهيم لا يمكن إدراكها خارج أنساقها، لذلك فالخبر وبعد نقله يصير متواريا وراء الفهوم المتعددة، إذ كلما انحرف المعنى في الخبر كلما تعدد ناقلوه، لأنهم يضيفون إليه عناصر أخرى من غير جنسه، والنتيجة أن مصير الخبر يصبح متواريا وراء حجب حالات الفهم على تعددها، والباحث الحصيف هو من يدرك هذه السيرة

² - عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط 4، 2005م: 58.

لتجنب التهويل في الخبر بحسب الفهوم الشارحة له، أو التهوين في الخبر بحسب النقول المقدمة له.

لذلك ليس من السهل الكتابة في التراجم، نظرا لأن الكتابة في هذا الجنس ليست فعلا آليا يتطلب التعرض لاسم وكنية ولقب المترجم له، مع ذكر تاريخ ميلاده ووفاته وشيوخه وتلاميذه، ناهيك عن ذكر مؤلفاته وبعض مناقبه وأحداثه وتراثه، بل هي فوق كل ذلك منهج في الصياغة قد تكون له بعض المؤثرات المشرقية بحكم بدايته، لكن ليست مقتصرة عليها فقط، بل زيد عليها بخصوصية محلية. والناظر إلى كتب التراجم المنسوبة لبلاد الغرب الإسلامي أمكنه أن يلحظ هذه الفوارق بين المصادر الأولى التي تنتسب إلى القرون الخمسة الأولى، وتلك التي تنتسب إلى القرون الخمسة الثانية، وملامحها الكلية مع ابن عبد الملك المراكشي.

إن منهج الصياغة في كتب التراجم ليس فعلا تجميعيا فقط، يهدف إلى التعريف الآلي بمشاهير الرجال، بل هو هندسة يختارها المؤلف بناء على تصور مسبق يحكمه، ورؤية تؤطر كتابته، فالتقديم والتأخير ليس أمرا بسيطا في الكتابة، بل هو ضرورة يراها المؤلف، قبل أن تكون ذات خلفية معرفية أو مذهبية أو حتى قبلية، هي ذات خلفية مصدريّة تتعلق بقربه أو بعده من المعلومة، وتماها أو نقصانها لديه، إضافة إلى طرق وصولها إليه (سماعا أو نقلا، رواية أو تقييما).

كما أن الصياغة لهذا الجنس عبر اختيار ترتيب محدد، يصل التراجم فيما بينها عبر ترتيب الأسماء حسب الحروف، أو الترتيب حسب البلدان، أو الترتيب حسب الوفيات، أو الترتيب حسب الطبقات ...، ليست مجرد تقنية يتم اعتمادها فقط، بل هي اختيار يستجيب لحاجة ما، وجواب لسؤال منهجي أساسه صياغة طرائق الضبط والتجميع خشية النسيان والتكرار، والتقريب والتيسير خشية الاختلاط والاستثقال، أي إن اعتماد طريقة محددة في التجميع بغاية الإخراج، انعكاس لذهنية المؤلف، وجواب لسؤال عملي وحاجة ملحة غايتها تيسير البحث والتعريف بالرجال، إنها في الخلاصة قانون يحمي الكتابة من الانزلاقات كما يسطرها المؤلف ويقر بها في مقدمة مصنفه، وفي ذلك اعتراف بإمكانية الوقوع في النسيان لا التجاهل، نظرا لأنه في كثير من الأحيان يقر بالبعد العلائقي بين بعض الرجال (أبناء، آباء، أخوال، أعمام، شيوخ ...)، وفي ذلك بيان لطموح الضبط والتدقيق. وهذا ما يفسر وجود ظاهرة ثقافية في بنية التأليف لكتب التراجم لدى علماء الغرب الإسلامي؛ حيث تكاد تنفرد بلاد المغرب والأندلس بالتذييلات والتكميلات، التي تعدت كتب التراجم (كتاب الصلة، وكتاب صلة

الصلة، وكتاب التكملة لكتاب الصلة، وكتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة) إلى التاريخ السياسي (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي).

إن كتب التراجم بما هي نوع من الكتابة تمثل شكلا من الوعي بالواقع، وطريقة في التعبير عن هذا الواقع، ونحن حينما نقرأ هذه النصوص وندعو إلى النظر في هذا الجنس من الفنون، فإننا في واقع الأمر نقرأ لوعي المؤرخ بهذا الواقع وبذلك العلم، لذلك فتعدد صور التعبير عن هذا الواقع، وتعدد صور الوعي به، قمين بأن يقرب الباحث من الواقع ومن العلم، نظرا لأن الترجمة في جوهرها مرآة عاكسة للزمان والمكان بكل تفاعلات الإنسان خلالها انحياز وإعراضا، أي إنها مرآة عاكسة للأنساق المعرفية التي تحتضنها، تجلي حقيقة المقصد والغاية الوظيفية من كتابة التراجم وجمعها، كما توضح طبيعة المفارقات المنهجية والمقاربات المعروضة.

كما أن الدعوة إلى إعادة قراءة كتب التراجم، مسار يتطلب الانفتاح على هذا الجنس المصدري عبر مناهج جديدة، تسعف في بيان دقائق ما تحويه من لطائف ونوادر وإشارات، سواء باعتمادها إلى جانب باقي المصادر الأخرى إعمالا لمنهج المقارنة، أو بالاعتماد عليها فقط تفعيلًا لمقاربات جديدة، مثل المقاربة الأنوماستية³ التي تهتم بأسماء الأعلام فقط، والمقاربة البيوغرافية⁴ التي تنظر في البنية الداخلية للترجمة بالتعريف أولا (الاعتماد على النسب والاسم والكنية واللقب ...)، ثم بالانفتاح ثانيا على البعد العلائقي الذي لا يفصل الترجمة عن الإطار السوسيو-تاريخي، ثم المقاربة البروسوبوغرافية⁵ التي ينبنى منهجها على تجميع المعطيات عن الأعلام، بغاية التوصل إلى الخصائص المشتركة لحياتهم ضمن المجتمع على مستوى نقط الائتلاف والاختلاف. أي تجميع معطيات دقيقة يمكنها أن تساعد في متابعة السيرورة اليومية لحياة هؤلاء الأعلام، تتبعًا لمناعمهم وألمهم.

وتطبيق هذه المقاربات (الأنوماستية والبيوغرافية والبروسوبوغرافية) وغيرها، هو أعمال لآليات منهجية قائمة على تصور أساس، محوره البحث في تراجم الأعلام إما بالوقوف على أسمائهم، أو الترجمة لحياتهم، أو البحث عن الخصائص المشتركة

³ - عبد العزيز أكبر، المقاربة الأنوماستية ما لها وما عليها، ضمن كتاب أعلام وطوبونيميا المغرب القديم، منشورات كلية الآداب جامعة مولاي سليمان، بني ملال، مطبعة ندير، بني ملال، ط1، 2012م: 17-33.

⁴ - دانييل بيرتو، المقاربة البيوغرافية: صلاحيتها المنهجية وإمكاناتها، ترجمة عبد الرحمن المالكي، مجلة إضافات، العدد 13، شتاء 2011م: 83-95.

⁵ - محمد المبكر، البروسوبوغرافيا في الدراسات التاريخية، مجلة أمل، العدد 15، السنة 5، 1998م: 7-17.

لسيرهم، آليات منهجية أساسها الكلي هو وجود المادة المكتوبة بالقدر الكافي، مادة توفرها كتب التراجم والأعلام على تنوعها، وتغنيها النتائج المحصل عليها من دراسات منجزة لقضايا مختلفة قبل.

إن مجموع المقالات المدرجة في هذا الكتاب وعلى تنوع غاياتها، إنما تسعى في غاية أولى إلى إيضاح شساعة مساحة النظر لهذا الصنف من المصادر، فهي لا تهدف إلى التعريف بكتب التراجم ولا إلى نقد مضمونها، وإنما تقصد إلى بيان حجم القضايا التي تثيرها مثل هذه المصادر، مع محاولة عرض بعض المعالم المنهجية اللازم استحضارها لحظة الانفتاح على بعض المقاربات، مبرزين مدى وهم المقولة القائلة بـ((أن كتب التراجم تؤرخ لمشاهير الرجال، وهي في ذلك تنحو منحى الكتب الاخبارية التي تؤرخ لدائرة الحكام))، مقولة أفزعت البعض فولى دون الاستفادة من هذا الصنف، ووجهت البعض الآخر فركب سطح معانيها.

كما أن غاية هذه المقالات في جانب ثاني هو كسر الحكم القائل بأن لكل مرحلة زمنية من مراحل البحث أساسها المصدري، بمعنى أن لكل فترة زمنية خصوصيات مصدرية ذات مرجعية فكرية تؤطرها، إنه كسر غايته أن نجعل من المصادر كلها على تنوعها مرجعية قائمة بذاتها، لا تقبل التخصيص إلا عند التعيين.

لذلك نقول إن الغرض من الاهتمام بالتراجم وكتب التراجم ليس بغاية إحكام نظرة داعية إلى تصوير الإنسان البطل⁶، بل بقصد البحث عن التاريخ وقضاياها، كما عرضت له وجهات نظر أخرى استنادا على مصادر متنوعة أو انفتاحا على مناهج متعددة.

⁶ - وإن كنا نميز بين الإنسان البطل الصانع لكل الإنجازات كما صورته الكتب الإخبارية، والإنسان القدوة العاكس للقيم تعبيرا عن تاريخ الأمة لا تاريخ الفرد.